التواصل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي
خلال عهد الأمير عبد القادر

إعداد / الدكتور محمد الهادي بوطارن
أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة
بوزريعة – الجزائر –

لقد اشتهر الأمير عبد القادر الجزائري بنزعته البطولية والحماسية والنضالية، ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر، فعرفه الجزائريون مناضلا وطنيا وشاعرًا فذًّا وبطلا صنديدًا، ومقاتلا شجاعا قاوم الجيوش الفرنسية النظامية المدربة أحسن تدريب، والمجهزة بأحدث وسائل التجهيز العسكري الحربي في ذلك الوقت، فأظهر صلابة قوية، وخبرة عسكرية مع حداثة عهده بالحرب، وأراد من خلال ذلك توسيع دائرة النضال والحرب لتشمل كافة مناطق الجزائر وتخليص أهلها من ربقة الاستعمار ولكن على حد تعبير شاعر الحكمة أبي الطيب المتنبي:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه* تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

حيث نفي الأمير خارج الوطن، وأمضى بقية حياته منفيا في عاصمة الأمويين دمشق، فتابع تثقيف نفسه يشتى العلوم، وجالس العلماء والفقهاء ورجال الدين والفكر، وأخذ عنهم الكثير، فأضاف كلّ ذلك إلى ثقافته وخبرته في الحياة العملية، فتوسعت آفاق معرفته، وازدادت نموًا وسعة، وعكف على دراسة العديد من المؤلفات والمراجع والكتب أثناء تواجده بالأسر في فرنسا، حيث قرأ "الصغرى" للسنوسي في علم الكلام ورسالة الإمام محمد بن أبي زيد القيرواني في الفقه على مذهب الإمام مالك، وغيرهما منالمصنفات، كما قرأ صحيح البخاري وكتاب "الشفا" للإمام عياض.

وعكف الأمير إلى جانب التدريس والمطالعة – على الكتابة والتأليف، ومما ألّفه خلال إقامته بأمبواز Amboise بفرنسا رسالة سماها المقراض الحاد.

وقد نظم الأمير كثيرا من قصائده خلال هذه المرحلة الصعبة من تاريخ حياته، وأعني بذلك قصائده المسماة بالمساجلات، وهي عبارة عن قصائد ومقطوعات شعرية، كان ينظمها على سبيل المساجلة والمفاكاهة والنوادر بينه وبين الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني.

إن ما تميز به الأمير من مواقف بطولية وإنسانية من جهة، ودرايته الواسعة بمختلف مجالات العلوم والآداب جعله محل إعجاب العديد من المثقفين والأدباء والكتاب العرب، حيث قال عنه بطرس البستاني في دائرة

معارفه " وفضلا عن كونه من أعاظم رجال السيف والسياسة، فهو أيضا في عداد الكتبة والعلماء، وله رسائل وتأليف في التصوف "[1].

كما أكد الأب لويس شيخو على الناحية الأدبية عند الأمير حين قال: " الأمير العظيم عبد القادر الجزائري، فإنه وإن كان من رجال السيف، إلاّ أنه كان أيضا من فرسان القلم "[2].

لقد كان الأمير متصوفا إسلاميا متحررًا من قيود التقليد المميت ومن عالم المادة الضيق، متطلعًا إلى عالم الروح الأسمى والأعلى، وكان الأمير شاعر البطولة والحماسة بلا منازع، لا في بلاد المغرب الأوسط " الجزائر " فحسب، بل في المغرب العربي بأكمله، فقد قال عنه أحد معاصريه وهو البيطار " للأمير نظم بديع "[3]، كما تطرق الخضاوي إلى موضوع السليقة الشعرية عند الأمير بقوله: " وكانت له سليقة جيدة قي نظم القريض "[4].

لقد زار الأمير العديد من الدول في إطار التواصل الثقافي بين الشعوب والدول حيث نزل ضيفا على الأستانة قادمًا إليها من " الأسر " بفرنسا يوم 9 يناير 1853 وكان في استقباله السلطان عبد الحميد الأول، وكان الأمير محل ترحاب من قبل الولاة العثمانيين أينما حلَّ أو أقام. إلاّ أن إقامته بالأستانة لم تدم أكثر من ثلاث سنوات حيث شعر بالغربة والاغتراب ما عجّل رحيله إلى دمشق التي دخلها سنة 1856.

وباستقراره في مدينة دمشق، تبدأ مرحلة جديدة مهمة في حياته الدينية والعلمية والفكرية.[5]

وقد وجد الأمير في دمشق جوّا كجو الجزائر وطبيعة كطبيعة معسكر وشعبا عربيا مسلمًا، عطوفا ومعجَبًا بجهاد الأمير وشرفه وقوميته، فاحتضنته، والتحم الضيف مع أهل الشام حتى أصبح واحدًا منهم، وتفرغ للعلم والتدريس والتصوف، وفتح بينه للزائرين والمحتاجين، والعلماء وأصبح مهوى الأفئدة ومطمح الأنفس.

لقد قضى الأمير ما يقارب الثلث من عمره في مدينة دمشق أي من 1856 إلى 1883 تاريخ وفاته. في القراءة وحلقات العلم والتأليف والتأمل الصوفي والرحلات. وكان الأمير مركز اهتمام العلماء والمثقفين والمفكرين أكثر من غيره، "فغدا قبلة للعلماء والفقهاء و محجتهم إليه، يعودون إليه في كثير من الأمور الدينية وعلى آرائه يستندون "[6] وهذه المكانة التي بلغها الأمير تعود إلى أكثر من سبب منها:

<u>أولا:</u> أن الأمير شريف من سلالة النبي (ص) حسني الأصل.

<u>ثانيا:</u> لأنه عالم جليل ومن العلماء الذين ذاع صيتهم في العالمين المشرقي والمغربي.

<u>ثالثا:</u> لأنه مجاهد، جاهد في سبيل الله سبع عشرة سنةً.

وقد طلب علماء دمشق وفقهاؤها من الأمير أن يكون أستاذهم، لما لمسوه منه من مشاعر العاطفة القومية من جهة، وبالواجب الديني من جهة أخرى، وأن مكانته العلمية والمعرفية والدينية، جعلهم يتشوقون

إلى الاستفادة من معارفه. وبناءً على إلحاحهم الشديد وافق الأمير على هذا الطلب وتم تشكيل صف من ستين عالِمًا وطالبًا، كانوا يجتمعون إليه يوميا في الجامع الأموي بدمشق، ومن الطبيعي أن يكون القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ونصوص الفلسفة، هي قاعدة الدروس والمناقشة[7].

وأهم الأعمال التي قام بها الأمير خلال إقامته بدمشق تحقيق العديد من الكتب العلمية والأدبية التي أصبحت فيما بعد مرجعا ومصدرا للطلبة الباحثين في مختلف المؤسسات التعليمية والتربوية.

وقد غدا بيت الأمير بدمشق مأوىً لعباد الرحمان الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ولا يشغلهم شيء من العلم والمعرفة، وذِكْر الله سبحانه وتعالى. ومن بين الوفود التي كانت تتردد على منزل الأمير ثلاثة علماء أجلاء وهم: الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ محمد الهاني، والشيخ الطنطاوي وهم الذين لم ينقطعوا عنه يومًا، وقد كانوا يترجونه الموافقة على تدوين دروسه وأحاديثه التي كان يلقيها عليهم في مجالسه، فكان لهم ما أرادوا، وعدّت تلك الدروس النواة الأولى لكتابة الشهير في التصوف والذي عُرف فيما بعد بكتاب " المواقف ".

كما كان بين الأمير ورجالات الشرق معرفة خاصة، ومراسلات فيما بينهم، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أحمد فارس الشدياق أحد علماء البلاغة العارفين باللغة الفرنسية واللغة العربية واللغة التركية.

والتقى أيضا رئيس جمعية العروة الوثقى الشيخ محمد عبده في سوريه حين وصل إليها منفيا من مصر، بعد ثورة أحمد عرابي 1882م، وكان ذلك قبل سنة فقط من تاريخ وفاة الأمير، وهناك العديد من المراسلات بينهما قبل اللقاء المباشر الذي تم في دمشق. وقد أشار محمد رشيد رضا في كتاباته إلى أعجاب الشيخ محمد عبده بشخصية الأمير ودوره في الحياة المعاصرة آنذاك.

وكان الأمير في نظر الشيخ محمد عبده من العظماء الذين لم يخلفهم غيرهم واستدرك لاحقًا أسماء آخرين من مصر والشام [8].

ويبدو أن الشيخ محمد عبده، قد ربط الصلة مع الأمير وتعرف على ابنيه، محمد ومحي الدين كما تعرف عن الجالية الجزائرية في سوريا، وكان شيخ الأزهر محمد عبده كثيرًا ما يفتح نقاشا مع الأمير ومع أبنائه حول أوضاع الشرق وأحوال الجامعة الإسلامية وجمعية العروة الوثقى التي كان الأمير عضوا فيها كما قيل.

ويذكر الشيخ محمد رشيد رضا الذي أرَّخ لحياة الشيخ محمد عبده، أن هذا الأخير قد كتب العديد من الرسائل إلى الأمير، وأن مخاطبته له قد كثرت. ويدور فحوى هذه الرسائل أحيانًا عن الإصلاح وأحيانًا عن الوداد، وجاء في إحدى هذه المخاطبات ما يدل على المراسلات المتكررة بينهما قبل وبعد اللقاء وكثيرًا ما كانت تحمل في طياتها التقدير الكبير الذي يُكِنه الشيخ محمد عبده للأمير القادر[9].

فتنة دمشق سنة 1860 وموقف الأمير منها:

من أبرز مواقف الأمير الإنسانية، موقفه النبيل من فتنة دمشق سنة 1860. فلم تكد الأنباء تتوارد عن قرب وقوع هذه الفتنة حتى جمع الأمير العلماء والوجهاء والأعيان من أهالي دمشق وخاطبهم قائلا: " إن الأديان، وفي مقدمتها الدين الإسلامي، أجَلُّ وأقدس من أن يكون خنجر جهالة أو معول طيش، أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم...أحذركم أن تجعلوا الشيطان يجهل فيكم نصيبا، أو يكون له على نفوسكم سبيلاً "[10].

ومع تحذير الأمير، انطلقت شرارة الفتنة بدمشق يوم الاثنين 20 ذي الحجة 1276هـ الموافق لـ 09 جويلية 1860م، ودامت سبعة أيام متتالية حيث يقول جرجى زيدان متتالية " لم يتوانفيها الأمير لحظة واحدة عن نصرة المظلومين، وإنقاذهم من القتل، وتطبيب الجرحى، وتعزية الثكالى واليتامى، وكان يقضي أكثر الليالي ساهرًا، وبندقيته في يده حرصا على من في حماه، فإذا غلب عليه النعاس أسند رأسه إلى فوهتها قليلاً "[11].

وبلغ عدد الذين أنقذهم الأمير من الموت والعذاب ممن لجئوا إلى داره وقلعة المدينة زهاء خمسة عشر ألف شخص، ولهذا فإن كافة مسيحي دمشق مدينون للأمير الذي قام بهذا العمل الإنساني النبيل.

الدوافع الحقيقية التي دفعت الأمير للقيام بهذا العمل الشريف:

لقد تعددت الآراء واختلفت حول هذه الدوافع. فمنها ماهو لابن الأمير الذي قال بأنالدافع الأساسي، هو تأييد الدولة العلية والدفاع عن حوزتها، ويرى بعض المؤرخين الغربيين بأن عملالأمير هذا كان نتيجة اتصاله بالجمعية الماسونية وهو رأي بعيد عن الحقيقة وأما الدافع الحقيقي لهذا العمل الشريف فإنه يكمن في الرسالة التي بعث بها الأمير إلى ملكة بريطانيا، ردًا على الهدية التي أرسلتها إليه حيث قال في رسالته تلك المكتوبة باللغة العربية والمؤرخة في 20 محرم 1278 هـ ما يلي: " إنني لم أفعل إلاّ ما توجبه عليّ فرائض الإيمان ولوازم الإنسانية "[12].

وقد مُنح الأمير العديد من الأوسمة الفخرية والنياشين من المصاف الأول من الدولة العثمانية وفرنسا وروسيا واليونان وإنجلترا، تقديرًا له على هذا العمل النبيل الذي قام به لإخماد نار الفتنة بين الإخوة الأشقاء السوريين المسلمين والمسيحيين، وهو ما يماثل اليوم جائزة نوبل للسلام بالمفهوم الحديث.[13]

وفيما يعود إلى الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الفتنة بين الإخوة الأشقاء في سوريفيرجعها الدكتور أبو القاسم سعد الله إلى التدخلات الأجنبية التي كانت تلعب بمصائر الشعوب من أجل مصالحها الخاصة،

ويرى أن الأمير قد وظف سمعته وماله ورجاله من المهاجرين لحماية الضعفاء، وكان أغلب جنوده في هذه القضية من أهل زواوة الأوفياء والشجعان، وكان موقف الأمير يستجيب أيضا لمصلحة القنصلية الفرنسية في دمشق فساندته، وخرج الأمير والجزائريون من هذه القضية متوجين بنصرة الحق وحماية وحدة الشعب السوري و شكر العالم المسيحي.

إن ما قام به الأمير عبد القادر من نشاطات فكرية وعلمية ودينية ومواقفه البطولية التي أخمدت نار الفتنة التي كادت أن تعصف بالوحدة السورية وبدولتها كانت محل إعجاب ورضا العديد من الملوك وقادة العالم العربي والأوروبي أهلته لتبوء المكانة المرموقة في سوريا، حيث أصبح اسمه مرتبطا بإقامة مملكة عربية في سوريا يكون هو على رأسها بدعم من الدول الكبرى. وجاء الوسطاء والمندوبين عن هذه الدول من بينها مندوب فرنسا الذي حمل رسائل إلى الأمير لمناقشة الموضوع، وقد سبق لها أي لفرنسا أن أثارت هذا الموضوع مع حلفائها في أوروبا، إلاّ أن الأمير كان غير آبه بهذا الشرف الكبير[14].

وقد سار في الفلك نفسه العديد من زعماء المشرق وكتّابه الذين شاطروا الفكرة الأوروبية، وحثوا الأمير عبد القادر على قبول الإمارة أيضا ويبدو أن هذه الفكرة جاءت بتحريض من بعض الجهات ومن بين الذين حثوا الأمير على قبول هذه الدعوة، نذكر: محمد الأمين العاملي، ويوسف كرم، وأديب إسحاق، ومنح الصلح [15]. وهؤلاء كلهم كانوا مؤمنين بالاتحاد العربي على يد الأمير عبد القادر وكانت السلطات العثمانية بالطبع غير مرتاحة لهذه المساعي العربية والدولية لأنها مساعي تهدم وحدة الدولة وتفرق العرب عن الأتراك.

وقد تفطن الأمير وفهم هذه اللعبة الخطيرة فتفاداها بحكمة وحافظ على وحدة الدولة الإسلامية، ولم يقع في فخ بعض الدول الكبرى التي كانت تريد أن تجعل منه مطية لتكسيرها.

ومن بين المحطات الثقافية والفكرية التي توقّف عندها الأمير خلال مساره العلمي والفكري والثقافي، محطة الحجاز التي زارها في إطار أداء مناسك الحج حيث غادر دمشق في أول رجب 1279 هـ الموافق لـ 23 ديسمبر 1862 متوجها إلى البقاع المقدسة مرورًا بمصر، وقد استقر به المقام في البقاع المقدسة طوال سنة كاملة قضاها في مكة المكرمة بين الدراسات الدينية والتعبد، لينتقل فيما بعد إلى المدينة المنورة التي قضى فيها زهاء أربعة أشهر أمضاها في عمله الذي بدأه في مكة الذي ويتراوح بين الدراسة والعبادة في مختلف المساجد التي ملأها ذكرًا وعبادة. ليستقر به المقام في النهاية بدمشق التي عاد إليها في 24 جوان 1864 ليستأنف نشاطه في مجال الدروس والمطالعة والعبادة.

إن هذه المحطات وإن تعددت موضوعاتها وتنوعت أهدافها فإن الأمير عبد القادر يظل رائدًا لها ومركز اهتمام الحضور من العلماء والفقهاء والمثقفين والأدباء مشيرًا في كل محطة إلى الواقع الثقافي ودور المقاومة الوطنية في الجزائر مستعرضا خبرته وتجربته في هذا المجال وتعميمها على مستوى الوطن العربي

والإسلامي، وفي المقابل وفي إطار التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب. قام العديد من العلماء والزعماء والمثقفين المشارقة والمغاربة بزيارة الجزائر في وقت مبكر، ما يدل على أن الجزائر لم تكن معزولة عن العالم العربي والإسلامي، فمنذ 1830 تطالعنا أسماء من الزوار المعروفين تاريخيا أو الذين لا نعرف إلاّ أسماءهم، وأحيانًا لا نعرف أسماءهم. ومن بين الذين زاروا الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي المصطفى بن طوير الجنة قادمًا من الحج وعابرًا إلى المغرب، ثم موريطانيا كان ذلك سنة 1832، وحظي باستقبال حارٍّ من الجزائريين وكرّموه، وتكفلوا بنقله من الجزائر إلى جبل طارق في سفينة جزائرية وظلوا يتابعون أخباره إلى أن وصل إلى مقر إقامته بالمغرب، وقد تأثر الرجل بهذه الزيارة، ودوّن بعض الملاحظات عنها وعن الجزائريين نشرت له باللغة الانجليزية بعنوان: " رحلة المُنَى والمِنَّةِ ".

وبعد حوالي سنة من هذه الزيارة، حلّ بالجزائر الحاج موسى الدّرقاوي وهو من رجال الجهاد والتصّوف، كان متوجها إلى المغرب حيث يوجد مقرُّ الطريقة الدرقاوية، وحين علم بحركة الجهاد في الجزائر ضد الاحتلال عرّج عليها، واتصل برجال الجهاد الأولين أمثال محمد بن عيسى البركاني والحاج سيدي السعدي والحاج محي الدين بن مبارك. والتقى هؤلاء جميعا بالرجل وقرروا عقد مؤتمر في متيجة سنة 1833 واتفقوا جميعا على تنسيق حركة الجهاد فيما بينهم، وكان لهم ما أرادوا.

وخلال الأربعينيات من القرن التاسع عشر زار الجزائر محمد الصالح الرضوي وهو من أعيان التصوف في المشرق آنذاك، وقد قام بزيارة العديد من العلماء الجزائريين وتبادل معهم الآراء والأفكار وتعرضوا إلى مناقشة العديد من المسائل التي تشهدها الساحة الجزائرية آنذاك.

وأما زيارة يوسف كرم فهي أوضح من سابقتها، كان يوسف كرم من أعيان البنان المسيحيين الذين زاروا الجزائر في إطار أحداث الشام أو ما سمي بالفتنة بين المسلمين والمسيحيين، والتي كان للأمير الفضل الأكبر في إخمادها قبل استفحالها، وكانت بين يوسف والأمير مراسلات من بينهما راسلة من كرم تحث الأمير على قبول إمارة بلاد الشام سواء تحت الدولة العثمانية أو دونها أي بإعلان الاستقلال عنها.

ومن بين الأعلام الذين قاموا بزيارة الجزائر في إطار التواصل الثقافي والفكري والأدبي، نذكر الشيخ محمد بيرم التونسي الذي زار الجزائر سنة1878. وقد سبقت هذه الزيارة العديد من الزيارات إلى الجزائر. ويعد الرجل من علماء جامع الزيتونة وصديق حميم لخير الدين باشا صاحب " أقوم المسالك " الداعي إلى الإصلاح، كما تعرّف بيرم على بعض رجال الدين ورجال القضاء في الجزائر. وكان مناهضا للحكم الفرنسي سيما نظام القضاء والتعليم وله تصورات ونظرات دقيقة في المجتمع الجزائري ما جعل أحكامه هذه لا ترضي الفرنسيين[16].

ويبقى في الأخير هذا التواصل وهذه الزيارات سواء ما كان منها من المشرق أو إليه أو من المغرب أو إليه، فإنها أسهمت بطريقة أو بأخرى في تطعيم الجو الثقافي والفكري في الوطن العربي خلال عهد الأمير عبد القادر وما بعده ويمكن اعتبار هذا التواصل بمثابة الحلقة المتسلسلة التيكانت تربط بين الجزائر والمشرق العربي وتعد نافذة مفتوحة يُطل منها المثقف والأديب والمفكر الجزائري على ما يجري في الضفة الأخرى من الوطن العربي الفسيح.

الهوامش:

*– أم البراهين في العقائد، المعروفة باسم السنوسية الصغرى.

[1]– بطرس البستاني، الأمير عبد القادر الجزائري، دائرة المعارف مج 11، ص.620

[2]– لويس شيخو، الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ج2، ص.90

[3]– البيطار، خلية البشر في القرن التاسع عشر، ج2، ص.915

[4]– الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص.313

[5]– فؤاد صالح السيد/ الأمير عبد القادر الجزائري متصوف وشاعرًا، ص.67

[6]– عبد الرحمان البربر، الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة الكشاف بيروت، 1928، ص.557

[7]– فؤاد صالح السيد، المرجع نفسه، ص.68

[8]– د/ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1998، ص.543

[9]– محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الامام، ج2، نقلا عن د/ أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ص.584

[10]– محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الامام، ج2، نقلا عن د/ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص.584

[11]– جرجي زيدان، تراجم مشاهر الشرق، ج1، ص192.

[12]– جواد المرابط، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري، ص.48

[13]– فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفًا وشاعرًا، ص.78

[14]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص.539

[15]– سهيل الخالدي، المهاجرون الجزائريون، مخطوط، ص185، وعن أبي القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص.539

[16]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص573.

المراجع:

1– بطرس البستاني، الأمير عبد القادر الجزائري، دائرة المعارف، مجلد11، مطبعة المعرفة، بيروت 1882.

2– لويس شيخو، الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ج2 ط2، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1926.

3– البيطار الشيخ عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق محمد بهجت البيطار2 مجلد، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، سوريا 1963.

4– الحفناوي محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة فونتانة الشرقية، الجزائر 1906م.

5– عبد الرحمان البربر، الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة الكشاف، بيروت 1928.

6– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5 دار الغرب الاسلامي، بيروت 1998.

7– جرجي زيدان،تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج1، ط2، مطبعة الهلال، مصر 1910.

8– جرجي زيدان، الأمير عبد القادر الجزائري، مجلة الهلال المصرية، ج5، القاهرة 1893م.

9– جواد المرابط، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري، منشورات، دار اليقظة العربية، دمشق1966

10– فؤاد صالح السيد الأمير عبد القادر الجزائري متصوفًا وشاعرًا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.